ذل الطمع أعناق الرجال

بقلم الأستاذ الدكتور يحيى أحمد الدوديري

تتفاوت أقدار الرجال في ميدان الأعمال حسب ما يجدون ويكدحون وتسمو الأمم حسب ما تقدمه أبناؤها من البذل والتضحية في سبيل رقيها وتقدمها وأكثر الأمم ثروة هي أكثرها في ميدان العمل رجالا مخلصين لغاية السامية التي نصبوا أنفسهم لخدمتها صابرين على تحمل المشقات والأذى في سبيل تحقيق المبدأ القومي العالي، ثابتين في أماكنهم في ساحة النضال والكفاح.

لما حمل الإسلام إلى العالم، ونادى بأفكار الذات في سبيل الذود عن الحق ونصرته، وجعل كلمة الله هي العليا ومادونها هي السفلى، وثقت العرب هذه الرسالة بالإيمان والتصديق، خرجت عن بلادها وأنفسها جميعة لتحوطها؛ مطيعة لربها، فكان جزاؤها أن سادت العالم في عشرات الأعوام، وفاقت غيرها من سبقها من الأمم المتحضرة بثلاث مئين، وذلك على الرغم من قلة عددها وعديدها. عملت فنالت، وصمت فصادت.

وعلى النقيض مما تقدم تتدهور الأمم بفقر أفرادها وتوانيهم عن السعي، ويتواكل زعماؤها ورؤساؤها عن نصرة الحق وانفراط عقد اجتماعها في دور الهوى وترك صالح الأعمال مبعثرين هنا وهناك، يجمعهم الرياء، وتفرق بينهم الأنانية. وتلعب برؤوسهم الأماني والأحلام، ويقعد همهم الخيال والأوهام. يتفرجون ولا يعملون. وإذا ما دعوا إلى العمل جعلوا بينهم وبينه سداً من المعاذير الكاذبة، وقروا من أداء الواجب غير خجلين ولا نادمين.

أمة يقل فيها العامل ويكثر فيها الخامل نوادبهم هي دور لهو وخور واجتماعاتهم مناحات وندب وأضغث على مآتم. ولا يهمهم الأمر مهما عراها وآت. وكلهم يلقي المسئولية على غيره ويطلبه منه مالا يطلب من نفسه. من كان هذا شأنه من الأمم فالبقاء لأشك حليفه. والزوال مصيره.

وعلة العلل في مثل هذه الأمم المستعبدة، هي حب الذات القائم على الجهل بحقائق الأشياء. وأكبر مظاهر هذه العلة هو الطمع الذي يورد الإنسان موارد الهلكة بأحجامه

عن البذل فيما يجب . ويسعيه وراء مالا يتحقق ، فهو بين عاملين من أكبر عوامل الشقاء : قصور فى أداء واجب وسعى وراء أمل كاذب . وكثيرا مايقود الطمع صاحبه الى تنكب الصراط المستقيم ، فيورث صاحبه الذل والعار ويدفعه إلى طريق الدمار .

نرى كثيرا من الآدميين وأنصاف المتعلمين يسعون لجمع الثروة من طريق الكيميا . (عمل الذهب) وبالتهم يتخذون الطريق العلمى المشروع من الدرس والاطلاع والبحث سواء عن الآراء القديمة أو الحديثة . ولكن يتخذون أساتذة من الدجالين والنصابين والاماكين ولا يكون نصيبهم من ذلك إلا الخسران المحقق .

الكيميا الذهبية أو صناعة الذهب من عناصر معدنية قليلة القيمة ، عمل مشروع فى ذاته لكل باحث تتوفر فيه شروط البحث العلمى الصحيح ، وأول هذه الشروط أن يكون الإنسان عالما بالكيمياء الحديثة وعنده معمل يساعده على مهمته . متصل بأحدث الآراء والمكتشفات عن طريق المجلات العلمية .

وإن ما يدهش له الإنسان فى هذه الطائفة الضالة الباحثة عن الثروة من غير طريقها ، أنهم يضعون أنفسهم وهن تعالم جماعة من جهلاء المحتالين فيغرونهم بهم ويسلبونهم مافى أيديهم وهم لا يعتبرون بما يصادفون من الخذلان . ومتباع الأموال إذ أن الطمع جعل على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون . ومنلهم كمثل المصدق الخدوع الذى زعموا فى شأنه أن صار فصدأ بيت رجل من الأغنياء . وكان معه جماعة من أصحابه فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم فعرف امرأته ذلك فقال لها :

روبدا أنى لاحسب اللصوص دخلوا البيت فأيقظينى بصوت يسمعه اللصوص وقولى :

ألا تخبرنى أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة ، وكنوزك العظيمة . فاذا نهيتك عن هذا السؤال فألحى على بالسؤال . ففعلت المرأة وسألته كما أمرها . وأنصت اللصوص إلى قولهما فقال لها الرجل :

أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق واسع كثير فكلى واسكتى ولا تسألى عن أمر إن أخبرتك به لم آمن إن سمعه أحد فيكون فى ذلك ما أكره وتكرهين . فقالت المرأة أخبرنى أيها الرجل . فلعمرى ما يقربنا أحد يسمع كلامنا . فقال لها :

فأنى أخبرك أنى لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة . وكان الأمر على يسيرا وأنا آمن من أن يتهمنى أحد أو يرتاب فالت فاذكر لى ذلك ، قال :

كنت أذهب فى الليلة المقمرة أنا وأصحابى حتى أعلو دار بعض الأغنياء متلثما فأنقب

إلى الكوة (الخرق فى الحائط) التى يدخل منها الضوء فأرق بهذه الرقية وهى (شولم شولم) سبع مرات . وأعتنق الضوء . فلا يحس وقوعى أحد . فلا أدع مالا ولا متاعا إلا أخذته . ثم أرق بتلك الرقية سبع مرات وأعتنق الضوء فيجذبنى فأصعد إلى أصحابى فتمضى ساعتين . فلما سمع اللصوص ذلك قالوا : قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال . ثم أنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا . فقام قائدهم إلى مدخل الضوء وقال : (شولم شولم) سبع مرات ثم اعتنق الضوء ليترل إلى أرض المنزل فسقط على أم رأسه منكسا . فوثب إليه الرجل بهراوته . وقال له من أنت ؟ قال أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يكون أبدا . وهذه ثمرة رفيقتك .

لو أن عشاق الثروة وجمع الذهب سلكوا الطريق المشروع من التجارة والزراعة والصناعة ، لما كان عليهم لوم ولا تثريب ، ولكنهم اتخذوا طريقا معوجا ملتويا يقودهم فيه أناس لا خلاق لهم بل هم من أحط الناس وأسفلهم . ولو علموا صياغة الذهب من عناصر كيمائية رخيصة لأغنوا أنفسهم وغنوا بعلمهم وبثروتهم على غيرهم .

كشف الحقائق فى الكون له طريقان : طريق البحث والدرس وهو الطريق العلمى المعروف المتداول فى المدارس والجامعات والمعامل ، أو من طريق الكشف الروحى وذلك يأتى عن طريق الرياضة النفسية وقطعها عن مطامعها وشهواتها وهذا طريق الخواص ، ولا يتيسر لطالب الذهب أن يسلكه ما دامت غايته حب المال وجمعه فهذه الغاية هى حجاب بينه وبين صفاء نفسه لادراك الحقائق الأشياء . وكلا الطريقين لابد لسلوكهما من العلم وإلا كان السالك فيهما مغررا بنفسه ، وكانت عاقبته إلى الهلاك والفشل

توجد طائفة أخرى من المتعلمين تريد الكسب عن طريق الوظائف . وقد أصبحت الوظيفة وكرابى المنصب . أمل الكثير من المتعلمين . ولو سلكوا لها طريقها المشروع لما كان هناك لوم لأحد . ولكن توانبوا عليها من طريق التسوية وإذلال النفس . وضياع الوقت فى الانتظار على الأعتاب . والوقوف بالأبواب وغير نفوسهم ذل السؤال . وحط من همهم انتظار النوال . وعملهم ليس فى شىء من عزة المتعلم الأبى . ولا من جلال المؤمن التقى . . أمة هذه حالها من تعر مفتون بحب المال الذى أخذ عليه أيه وسمعه وبصره ، وآخر ولها بالمنصب والجاه فقد فيه عقله ورشده . لا بد أن تكون خليقة بالشقاء وسخط الهم والبلاء .

أيها الحريصون على الحصول على المال ، وأيها المفتونون بالمناصب لقد أذل الحرص أعناقكم . وأهدر كرامتكم وأضاع عزتكم ؛ فصدتم غيرالله فخذلكم واعتزتم

بغير ربكم فسلط عليكم ما فعلتم ، ونسيتم أمر خالقكم فأتاكم طريق الهداية ، واستحوذ عليكم الهوى فولجتم مسالك الغواية ، فأذا أنتم بين ضال ومضل ، ومفتون ومغبون . وذليل ومقهور ، وقد قال بعض الحكماء : وجدت أعاذل الناس غما ، الحسود . وأهنأهم عيشا ؛ القنوع . وأصبرهم على الأذى : الحريص إذا طمع . وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة ، العالم المفرط .

إذا كان السعي على الرزق واجبا فيلزم أن تصحبه عزة الإيمان وسلامة الوجدان والاعتماد على الله وحده .

وإذا كان العمل في هذه الدنيا أحد فروضها وأهم لوازمها ، فالتوكل على الله يجب أن يكون عمادها ، وكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه يجب أن يكونا طريقها ومنهاجها . وقد قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس : أجملوا في الطلب ، فأنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة .

وقال أبو حازم رضي الله عنه : وجدت الدنيا شيئين منها ما هو لي فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والأرض ، ومنها ما هو لغيري فذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي . فبم الذي لغيري متى كما يمنع الذي لي من غيري ، ففي أي هذين أفني عمري ؟ .

يجب أن نعرف أن هذه الدنيا ربما قادرا ، قد وضع لها نظاما محكما من سلك نجا وسعد ومن حاد عنه ضل وشقي . وقد قال تعالى وقوله الحق : « من أعرض عن ذكري فأن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى : قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

لو بحثت عن السبب الأصيل لهموم الناس وأحزانهم وشقائهم وإذلالهم ، لوجدته في حرصهم وأطماعهم وتركهم التمسك بكتاب ربهم والاهتداء بهدي نبيهم ، وليس هناك أمل في برء العلة ، وكشف الغمة إلا بالرجوع إلى خالقهم طائعين تائبين وتنفيذ ما جاء به شرعهم راغبين جادين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الرزق مقسوم لن يعدو المرء ما كتب له فأجملوا في الطلب ، وإن العمر محدود لن يجاوز أحد ما قدر له ، فبادروا قبل نفاد الأجل ، والأعمال محصاة لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة ، فأكثروا من صالح العمل . أيها الناس إن في القنوع لسعة ، وإن في الاقتصاد لغنى ، وإن في الزهد لراحة ، ولكل عمل جزاء ، وكل آت قريب »

الدكتور يحيى أحمد الرسيسي